

نقد "فيلم كفرناحوم"
والذي يحكي عن حياة الطفل زين، التي قضاها بالعمل في الشوارع، وحتى
قام برفع دعوى قضائية ضد والديه لإنجابهم له

- نوع المحتوى: بصري
- المدة الزمنية: ساعتين و6 دقائق
- نوع المادة: فلم
- رابط المحتوى (إن وجد): <https://www.netflix.com/sa/title/81002571>
- عمل المجموعة:
 - عبير السلمي
 - موضي السبيعي
 - سعاد المطيري

في أحد محاكم لبنان، وبتغطية كبيرة من وسائل الإعلام، ووسط حضور كلاً من محامية الطفل زين الحاج وعائلته، في محاكمة فريدة من نوعها، يسأل القاضي عن سبب وجود زين وما الذي يريده، فكان لرد زين عندما قال "بدي أشتكي على أهلي لأنهم خلفوني" افتتاحية لفلم كفرناحوم، حيث شكلت كلمته رنين أثقل على الجميع سماعه، يبدأ الفلم بعدها بعرض حياة زين بطريقة العودة للوراء، وبعرض العوائق التي مرت في طريقه، ملخصة لنا في ساعتين و6 دقائق من الألم والحزن.

يحكي الفلم قصة الطفل السوري، والذي تمثل قصته الكثير من الأطفال الذين أجبروا على العمل في الشوارع لإعالة عائلاتهم، وكيف قد تنعكس طبيعة هذه الشوارع بظلمها وقهرها على طفولتهم، تدور أحداث هذا الفلم في العاصمة اللبنانية بيروت، في أكثر أحيائها فقراً وحرماناً، حيث يعرض الفلم طبيعة تلك العوائل المتلونة ما بين الفقر والتعاسة، وكيف لأنانية الآباء والأمهات -بإشباع رغباتهم بالإنجاب، وعدم نظرهم بالشروط التي تسير بها حياتهم- أن تؤدي بحياة أطفالهم نحو التعثر والحرمان، وتنتزع كل المعاني التي تبني مفهوم الحياة الطبيعية التي يحظى بها كل طفل.

كما سعى الفلم للتطرق لأكثر من قضية أولدتها الحروب، حيث أظهر كيف يعيش اللاجئين بلا أوراق وثبوتيات تفيد ببقائهم على قيد الحياة، وبضمان وكفالة حقوقهم، وكيف قد يُحرم أطفالهم من حقهم بالتعلم والشعور بالأمان في هذا الواقع الجحيمي، الممزوج ببعض من صور الحياة، فأوضح كيف قد تنتهي هذه الحياة المؤسفة غير الصالحة باكتساب الكثير منهم العادات السيئة، واختلاطهم مع مروجي المخدرات، واعتيادهم على التدخين والشتم والعنف.

كما تطرق لقضية زواج القاصرات الأمر الذي بات واقعاً مهما استنكرته الأعين، فكان لغضب زين وحزنه على شقيقته سحر بداية لتجرد القيمة والتواجد العائلي في حياته، حيث شكلت هذه الحادثة أول دافع له نحو الهرب.

بعد حادثة هرب زين يمر الفلم بمنعطفات ضيقة على اتساع روح زين، ترسم بها هذه المنعطفات تخبطاته، غضبه، قلة حيلته، وحاجته للمعنى العائلي الذي يشعر به من هم في عمره، كان إحدى هذه المنعطفات تعرفه على العاملة راحيل، في مدينة الألعاب أثناء بحثه عن عمل، حينها تشفق راحيل وتقبل أن يعيش معها ومع طفلها يونس، فينتقل الفلم لعرض واقع العمالة غير النظامية، وتخبطات راحيل نحو تأسيس حياة مستقرة ليونس، وإيصال المعنى السامي لمفهوم الأمومة التي لا تختفي لصعوبة ظروف وأوضاع وإنما

هي احتواء قائم في شدة أو رخاء، وعلى هذه الواقعة يتطرق الفلم أيضا لتجسيد أحد نماذج الابتزاز التي يقوم بها المهربين، في حق العمالة غير النظامية، من التكبسب من ورائهم ووعدهم بوعود زائفة، قد تنتهي بهم نحو السجن والتعرض للترحيل.

تبدأ التغيرات في مجريات الفلم، عندما تُعتقل راحيل لعدم امتلاكها أوراق ثبوتية، حينها يتعين على زين العناية بيوناس، فيضطر زين لبيعه إلى أحد المهربين بشرط أن يساعد زين بالهروب إلى تركيا، ورغم تعلق زين بيوناس وحبه الشديد له إلا أنه أدرك عدم استطاعته على رعايته، بعد ذلك يعود إلى منزله للحصول على أوراقه الثبوتية حتى يُصدم بحقيقة غيبته عنه، وهي موت شقيقته سحر أثناء حملها وإجهاضها، حينها لا تُبقي هذه الحادثة زين هادئاً، حيث يسارع للثأر لسحر، وتنتهي هذه الحادثة بطعن زين زوج سحر، مما ترتب عليه اعتقاله وصدور قرار بحبسه في سجن رومي للأحداث، وأثناء قضاء زين في السجن يوجه نداء يحمل فيه معاناته، حيث طالب بمحاكمة عائلته على إنجابه ضمن أحد البرامج المباشرة، ودعا إلى عدم إنجابهم للأطفال، فلاقى نداءه إجابات من مسؤولي وسائل الإعلام وأفراد المجتمع.

لاقي الفلم إشادة بمدى واقعية طرحه، وأصالة الفكرة التي عرضها، كما وافقت سُعاد المطيري هذه الإشادة، فذكرت أن ما ظهر ببعض المشاهد من كلمات نابية من قبل الأم والأب، كانت إشارة حاول من خلالها الفلم استعراض الوسط العائلي الذي نشأ معه زين وتلطح به، وهذه الإشارة أضافت لواقع هذه القصة حبكة ومصداقيتها، وتعقيباً على ذلك، أثنت عبير السلمي على العمق الكامن في زوايا شخصية زين، والتخبطات المدروسة التي عايشها بين ثنايا القصة، والتي لم تبدو مبتذلة لعين المشاهد، بل كانت تمر برتم بين الأحداث السلسة والواقعية.

فيما ترى موزي السبيعي أن من أهم عوامل نجاح الفلم هو الاختيار الجيد للممثلين، حيث أن المخرجة تعمدت اختيار أشخاص لم يسبق لهم أي تجربة تمثيلية، مما انعكس على العمل بواقعية أكثر، وأشادت بقدرات الطفل زين التمثيلية، وعيناه التي لاقت زخم من الالتفاتات، فعيناه التي صورت سخطه وغضبه، كانت أشبه بسلسلة روائية صورت مآسي عدة.

وأشارت عبير أن في اختيار الأحياء النائية إضافة قد شكلت نظرة خاطفة لطبيعة العيش في هذه الأحياء واشبعت عين المشاهد بالوجع الذي يسكن بين زواياها، وصورت قهر هذه الشوارع وعدم مبالاتها بوجع ساكنيها.

كما صنعت المخرجة في لقطاتها وفي اختيارها للإضاءة الطبيعية واعتمادها على الموسيقى التصويرية عالم رمادي يسوده بهتان الحس، الأمر الذي خلق للفلم مزاج خاص به، إلا أن هذا الأمر لم يمنع المخرجة من الإتيان بزوايا جمالية تمتع عين المشاهد، وعلى غرار هذا الحديث، ذكرت سعاد أن أحد المشاهد التي عاشت فيها لوقت من الزمن، كان مشهد ركوب زين الأرجوحة الدوارة في مدينة الألعاب، في الدقيقة 16:36، فكان للحظة الغروب في ذلك المشهد إيضاح لمدى القدرة الإخراجية، في التقاط زوايا جمالية أسرة، كما كان الرتم الإيقاعي ذا معنى، وكأن المشهد يحاول أن يصف حيرة طفل ظلت طفولته عنه، وأمست غاربة أمام عيناه.

وكسائر الأعمال السينمائية، انتقد البعض شدة المبالغة في استخدام الألفاظ النابية، وعدم وضوح بعض الحوارات لشدة المؤثرات الصوتية بالخلفية، فيما ذكر البعض أن الفلم تطرق لبعض الشخصيات ولم يُعقب بذكر خلفيتها، الأمر الذي جعل المخرجة تضطر لإيضاح أن عدد الساعات المصورة كان 500 ساعة، اضطر فيها فريق المونتاج لاختصارها إلى ساعتين و6 دقائق، أحدثت فيها المخرجة تنقلات لمشاعر المشاهد، في وصف دقيق، لا يمل به المشاهد بالقدر الذي تزاوله رغبة بالبكاء بلا توقف.